حجر الزمرد المهجور
يسرى الأيوبي

في الأساطير القديمة أن ملكاً كان يحكم بيـروت فـازدهرت فـي عهـده ازدهاراً لامثيل له، وأصبحت درة المتوسط، وجسراً يـصل الـشرق بـالغرب، وطافت سفنها العالم بعد أن ذللت البحر تحمل إلى الموانئ الفرح والعطر والحرير وسحر الأبجدية والأرقام، وتعود بالكنوز وتبنـي القـصور والـسفن والمـسارح والمكتبات والملاعب والحمامات. وكان للملك ابنة وحيدة هي في غايـة الروعـة والجمال، كما تقول الأسطورة، تخشع لجمالها وعفتها وحكمتهـا القلـوب. ولمـا أصبحت في سن الزواج تقدم لخطبتها الكبار والأعيان فرفضت، أوسـم وأشـجع الرجال فأبت. وأصبحت شاغل والدها وهاجسه. لقد حملت فـي صـدرها سـراً لاتستطيع البوح به. وأحاطها والدها بجوار كان قد رشاهن ليعرفن ما بها، وكانت إحداهن أديبة أريبة، تفهم نفوس الناس، وسرعان ما حازت على ثقة سيدتها، وذات يوم في جلسة ود حميمة انتزعت سرها من أعماقها. ومـا أن أخبـرت الأميـرة جاريتها بمكنونات نفسها حتى حصل أمر رهيب. هدر البحر وماج وخـرج منـه تنين ترسل عيناه شرراً يحرق المدينة، ويرعد زفيره قاذفاً الـصواعق، وكثـرت ضحاياه، وكثر تخريبه للمدينة.. تندفع الموجة الصاخبة المفترسة فتجتاح البساتين والمستحمين على الشاطئ، وتبتلع مراكب التجار والصيادين.. ولما التجأ النـاس إلى بيوتهم وقبعوا داخل أسوارهم علت الموجات الغضاب، وهددت بإغراق المدينة ومسحها من الوجود.. وتساءل الناس عما يغضب التنين، وما الذي يسكن غضبه، وبعثوا إليه بالرسل.. ولم تلبث الألغاز أن كشفت، وعاد الرسل مطأطئي الرؤوس مجللين بالعار. ابنة الملك عشقت عبداً آبقاً.. وهذا أيقظ التنين النائم فـي أعمـاق البحر ليمارس قانونه وسلطانه، ولن يسكن غضبه إلا أن يعذب العبد حتى الـنفس الأخيرويصاب، و يضحى بابنة الملك في كامل زينتها لتكون عروساً للتنين.

ماذا يفعل أب في مثل هذه المحنة ؟ بعرشه يهتـز مـن تحتـه، بـشعبه المذعورالغاضب، بأصحاب السفن المقلوبـة والحوانيـت الفارغـة والمـسارح والملاعب والحمامات المهجورة، بوزرائه وبقادة جيشه وحراس قوافله؟ والعرافون وضاربو الودع الذين يكشفون الغيب من مستشاريه يتنبؤون له بانهيار ملكـه إذا رفض الانصياع لمشيئة التنين! فالحب ليس عاطفة لا تترك آثارها، ليس تمـازج قلبين كما يقول الحمقى، أو حتى حناناً يمد يداً رفيقة لإنـسان سـقط فـي هـوة المجتمع. لم يكن ماضي العبد يشفع له، حتى لو كان سيد قومه، فهو ابن هزيمـة يصر قانون البحر على أن تبقى هزيمة أزلية، ويبقى صاحبها هناك أبد الدهر في أغلاله وأسماله يجر معه إلى الهوة كل يد تمتد لانتشاله. إن عبودية الـشاب قـد حدثت لأنه هزم، لافرق في ذلك أكان المهزوم هو أو أباه أو جده. أصبح لـسيده حق الحياة أو الموت عليه، يحرره الموت أو النصر، ولا يسمح له بالحيـاة مـع

الهزيمة الا في ظل العبودية. هذا هو ناموس الطبيعة، ركائز الكون التي حاولـت تلك الفتاة بحماقتها أو جهلها أو بفيض إنسانيتها أن تهدمها. فلا أمل أن يغفر لهـا الأب الملك، حتى لو كان قلبه يقطر دماً، وعليه أن يرميها طائعاً للبحر الغاضب..

عند فجر تنفيذ الحكم بالعاشقين المسكينين تسللت ابنة الملـك إلـى سـجن حبيبها في قبو القصر وتمكنت من أخذ مفتاح زنزانته من الحارس النائم وحررته. وعند طلوع الشمس رأى الناس الذين تجمعوا على الشاطئ لمشاهدة مراسم زفاف ابنة الملك من التنين، شابين يافعين يركبان زورقاً صغيراً ويتجهان إلـى عمـق البحر غير عابئين بالخطر الذي يتهددهما. وعرف الناس المذهولون أنهمـا ابنـة الملك والعبد الآبق. لقد ضاقت بهما الأرض على رحبها ولم يجدا مكاناً يلتجئـان اليه فقررا مواجهة مصيرهما الذي كتب عليهما. وسرعان ما ارتفعت موجة هائلة ورآهما الناس يتعانقان فوق الموجة الصاخبة، ثم يغيبان في اللجة التي دفعتهما إلى الأغوار السحيقة..

كان الناس وكأن على رؤوسهم الطير مشاهدين مغلوبين علـى أمـرهم أو منفذي قرارات لايستطيعون أن يعصوها، إذ بها ترتبط معيشتهم أو حياتهم. كانوا جميعاً في بلاء وكرب شديدين، تفيض قلوبهم أسى وحزناً على الـشابين. هـدأت سورة التنين بعد أن التهم جسدي الشابين الطاهرين الحالمين، ولم يسمع به أحد بعد ذلك حتى ظن الناس أنه هجر مربعه في بحر بيروت الى الأبد.

أما اولئك الذين هم ليسوا أصـحاب قـرارات أو سـفن أو قـصور، ولا يترددون على المسارح والملاعب والحمامات، فقد ساروا في ذلك اليوم الحـزين في موكب جنائزي يجلدون أنفسهم بالسلاسل حتى دميت ظهـورهم وصـدورهم. كانوا في تأنيب ضمير جماعي لأنهم صمتوا وخذلوا الشابين العاشـقين. وكانـت الجموع من الكثرة بمقدار، فلم يجرؤ أحد على منعها من السير في هذا الموكب..

وهكذا في كل عام، في الموعد نفسه صار يخرج الموكب الحزين بالسلاسل التي يلفح بها الناس ظهورهم حتى يدموها الى قبرين رمزيين أقامهما عند مصب نهر بيروت في البحر الأب الذي أفقده ندمه وحزنه على وحيدته حكمته واتزانه.. كان القبران من زمرد خالص كتب على أحدهما العاشـق والآخـر المعـشوق.. وكانت موجات البحر تغدو وتروح فوقهما، ونما عليهما الطحلب، ثم نسي النـاس جوهرهما وان بقوا يخرجون في موكب كل عام يحجون الى تلـك البقعـة التـي يحملون لها القداسة دون أن يدركوا جوهرها أو يعرفوا قيمة حجارتها التي اختبأت تحت الطحلب، ومع الزمن نسي الناس قصة العاشقين ولكنهم ظلـوا يـأتون فـي الأعياد الدينية الى تلك المنطقة يتبركون بها، ويعقدون صفقاتهم التجارية ويقيمون أعراسهم ويولمون أو يتجمعون للنزهة وهم يظنون أن القبرين المتواضعين لوليين صالحين..

جاء ذات يوم مستشرق قرأ في المخطوطات القديمة عن وجـود حجـري الزمرد اللذين زاد تقادم العهد من قيمتهما التي لا تقدر بـثمن. ولمـا تأكـد مـن وجودهما في مكانهما عاد بفرقة تنقيب عسكرت قرب القبرين وأخـذت تتظـاهر بأنها تنقب عن الآثار في المنطقة وفي الليل نقل الحجرين من مكانهمـا ثـم قـام بتهريبهما الى الغرب.

وتقول الأسطورة، وها أنذا أرويها كما سمعتها وتناقلها الناس جـيلاً عـن جيل، بأن المستشرق قد ترك مكان الزمرد حجراً عادياً كتب عليه هازئاً: "ياأهـل بيروت أين النظر، ألا تميزون الزمرد من الحجر؟"..

ومضى زمن آخر نسي الناس فيه كل هذا، وقل ارتيادهم للمكان وهجروه.

* * *

مرت الأيام والسنون والناس في بيروت مطمئنون لاهون يأكلون ويشربون ويتناسلون، يبنون بيوتهم ويزرعون برتقالهم ويمارسـون حـرفهم وصـناعاتهم، وينشطون لتجارتهم ومهنهم ووظائفهم، يستقبلون سائحيهم، ويقيمون مهرجانـاتهم. عاشوا يتحابون ويتباغضون، يتفقون ويختلفون، ويتعاونون ويتشاحنون، وكـانوا يصدقون ويكذبون، ويتعبدون ويلهون، كما يفعل الناس في كل زمان ومكان. كانت المدينة الذهبية، درة المتوسط الشرقية تستلقي في ظلال أرزها وبرتقالهـا هانئـة لاتشعر بالخطر الذي يقترب منها. أخذت النذر تتراكم عند الأفق غيومـاً سـوداء شيطانية تنبعث من البحر الساكن سكوناً لاعهد للناس به، وكأن أمواجه تخاف مما يحمل بطنها. وفرت مخلوقاته، وعادت شباك الصيادين خاوية من الأسماك وحتى قناديل البحر والأعشاب البحرية. ومن أعماق البحر سمع صوت هدير مكتوم..

وقف الناس على الشاطئ يراقبون بقلق هذه الظاهرة الغريبة، ولكن مـرت أيام ولم يحدث شيء فنسي الناس أمرها وعادوا الى لهـوهم ومـشاغل حيـاتهم اليومية.

في الهزيع الأخير من الليل، ترددت صرخة بشرية رهيبة حملتها الريـاح الى كل نافذة وزاوية من زوايا المدينة النائمة:

- لقد عاد التنين الى شواطئنا.

وأفاق الناس على ضربة هائلة هزت المدينة. التنين يريد أن يوسع حـدود مملكته البحرية حتى تشمل البر والجبل. ان هذا التنين قد التهم ثلاثين مليوناً مـن الأسماك والحيوانات المائية في العام الذي مضى: أسـماك مـن كـل الأحجـام والألوان، رعاد وشبوط وسمك موسى، وأسماك طائرة وذات سيوف وإبر مسمومة

وقروش، ودلافين وأطم.. يوم استقر في المملكة البحرية متـسرباً الـى شـعابها المرجانية أصبحت له تلك السمعة السيئة ولقب بملك البحـار، وخافتـه الحيتـان وحسب حسابه القرش والأخطبوط.. كان شعاره تجاه الأسماك أن السمكة الطيبـة هي السمكة التي تشوى وتوضع في طبق تزينها شرائح الليمون والثوم والبقدونس النضر وتفوح منها رائحة تثير شهيته. وأبغضها إليه تلك التي تروغ منه وتـزوغ ولا تمكنه من نفسها. كم كانت تثير غضبه تلك الأسماك العاصية المخربة عاشـقة الحرية في بحر الظلام المليء بالكمائن حيث تتخبط الأسـماك الـصغيرة وهـي تصارع صامتة الموت والطحن في أشداق فاغرة تصبح بدورها لقمة سائغة لشدق أكبر. كل شيء يجري في صمت، صمت البحر العميق، لاجنائز دفن، ولا منـاد يطلب الرحمة لمن حان حينه، ولا قارئ قرآن يودعه الوداع الأخير بالتراتيل، ولا أجراس كنائس تنعيه.

يندفع تنين البحر بقوة مجنونة يريد ضم البر إليه، فمنذ الطوفـان الأخيـر تملكه هاجس إغراق العالم بطوفان جديد، بعالم مـائي يغطـي رؤوس الجبـال، وتحويل الكائنات البرية التي تسير على قدمين وتتنفس برئتين إلى ذوات زعـانف وغلاصم؛ عالم من اختراعه ومن اختياره يسري عليه قانونه الذي لا يريد للعـالم قانوناً سواه، ضارباً عرض الحائط بكل ما اشترع الانسان من نظم تجعل حياتـه أكثر إنسانية وعدلاً.

لقد سقطت جزر كثيرة في أعماق المحيط وغمرتها المياه وتحولت كائناتها البرية الى كائنات سمكية. وكانت الأمور تجري على منوالٍ واحد: تتفتت الصخور بفعل مادة زمردية ذات قوة انشطارية هائلة هي مليون مرة أقوى من البلوتونيـوم والكوبالت، وتبدأ الزلازل تجتاح الأرض والناس والعلاقات. وحتى في المراحـل الأولى تنشق الأرض وتبتلع كتل الإسمنت المشيدة التي تتهاوى كأنها قصور رملية يبنيها طفل لاه على الشاطئ وتدفن معها سكانها فـي بـاطن الأرض. وتنتـشر الحرائق فيقذف سكان العمارات أنفسهم مع أطفالهم الى الأرض لأن صدمة الموت من علٍ أهون من عذاب الموت احتراقاً. ويبدو الأمر كله كأنما هـو مـن فعـل العناصر الطبيعية المحلية وكأنما الأرض تلفظ من عليها بعملية انحـلال هائلـة. ويفعل المادة المشعة التي يستنشقها الناس تبدأ لديهم أعراض شـعور بالاختنـاق كأنما هو وباء غريب يصيب الرئتين ويعطل عملهما في كل إنـسان. ثـم تأخـذ الأطراف بالضمور التدريجي حتى تتلاشى تماما عند البعض. فالعملية لاتحـدث عند الجميع في آن واحد. وفي فترة التشكل ينقسم الناس إلى فئتين: كائنات بريـة وكائنات بحرية، وإلى عدد لايحصى من كائنات بين بين تفقد بعـض أعـضائها وينبت لها أعضاء أخرى. فاذا ما اكتملت صـورتها الجديـدة أصـبحت الحيـاة مستحيلة عليها في البر، وألقت بنفسها في غياهب البحر حتى قبل أن يأتي الزلزال الكبير على ما تبقى من آثار البر الصامدة. وطبيعي أن العلاقـات أيـضا كانـت تصيبها الحالة الانشطارية تلك، ورجال القانون كالأطباء أصبحوا يواجهون قضايا

غريبة شاذة هي نتيجة الانشطار الى بري وبحـري لا يمكـن تطبيـق القـانون المعروف على حالاتها الخاصة، حتى أصبحت تلك القضايا الشاذة هـي الـسائدة وانعدم معها القانون. زيجات تنهار، وخطوبات تنفصم، وأسر تتفكك، وشـركات تفض، وثروات يعاد توزيعها لصالح الكائنات البحرية.

تنين اليوم لم يعد يسكن غضبه فتاة نقية صادقة تلقى في أشداقه، إنه يريـد ابتلاع البر كله في مملكته البحرية. كتبت كتب كثيرة تصف عاداتـه وتحركاتـه وسكناته، وعدد ضحاياه والمدن التي دمرها، ولكن لم يتوصل أحد الـى طريقـة للخلاص منه، بل الأنكى من ذلك أن أناسا كثيرين كانوا يقترفون الشر وينـسبونه الى التنين ويلعنونه مع اللاعنين كما جرت العادة في لعن إبليس عنـدما يقتـرف البشر الحماقات. وآخرون يبرئونه من كل ذنب ويقترحون الطرق للتفـاهم معـه وتسليمه كل يوم عدداً معلوماً من الضحايا فيكف عن غـضبه المـزمن وجـشعه الخبيث. بل إن هناك من اقترح تحكيمه في الحالات الانشطارية التـي أصـبحت شاغل الطب والقانون والناس. ولقد عقدت مؤتمرات كثيرة لهذه الغايات لم تـسفر إلا عن مزيد من البلبلة في الرأي ووهن في العزيمة والتشرذم والاقتتال. وكـان التنين يضحك في سره إذ أن حماقة الناس قد مهدت الطريق لضربهم والانتـصار عليهم. وصار من أكثر المشاهدين حماساً لمواكب جاد الـنفس بالـسلاسل، هـذا الطقس القديم الذي عاد الناس الى إحيائه بعد أن عفا عليه الزمن.

وانطلقت كذلك الجن من عقالها وساكنت البشر تحصي أنفاسهم، وتوالـدت يوم خرجت إلى سطح الأرض في متوالية هندسية، وأصبح لكل إنسان قرين، طبقة كاملة من الأشباح العالمية تتخذ صفات البشر وما هي ببشر. وتزاوجـت الجـن وتكاثرت وكلما قامت حفلة زفاف مترفة دفع تكاليفها المصرف الدولي من الفوائد التي يتقاضاها من الناس . لقد أصبح للجن ذرية تغطي العالم من شرقه الى غربه. كانت لها أسنان قارضة كجرذان الحقول تقرض كل شيء بدءا من الشرف وانتهاء بسنابل القمح.

وضرب الجفاف الأرض، سبع سنوات عجاف تليها سبع أخر. تطالعك في الشاشة البيتية كل مساء الأجساد العنكبوتية لأطفال جياع، أرواح ضائعة منفيـة، ألوف منهم ينقرضون قبل أن تشتد سواعدهم لزرع الحقول ثانية. وأخـذ النـاس يتساقطون بالعشرات، فمن لم تحصده النار حصدته المجاعة أو فتكت به الأوبئة.

نادى المنادي بعد موهن من الليل: "التنين عند شـواطئنا!" وأفـاق أهـل بيروت مذعورين على هزة أرضية خلفت بعض الضحايا مـن مخلوقـات بريـة وأخرى بحرية دون تمييز، ولم يشعر بوطأتها الكثيرون، ولكنهـا كانـت تنـذر بالزلزال الكبير الذي يتحسب له الجميع ويزرع في النفوس قلقاً وهاجساً دائماً. فكل فرد يشعر في أعماقه بشوكة تخزه في فرحه ولذته ونجاحه، إنه انعدام الأمن الذي يقود بالتالي الى نوازع الأنانية والفردية وفساد القيم. وأخـذ النـاس يتكتلـون لا

كمخلوقات برية وأخرى بحرية فحسب بل كجماعات وشراذم من هـذه الفئـة أو تلك..

كان التحول البيولوجي قائماً على قدم وساق، فكم من من قزم أصبح عملاقاً وكم من عملاق غدا قزماً. وكانت الكتل تغير مواقعها، فالصديق يـصبح عـدواً، والعدو صديقاً. وكانت المخلوقات البحرية تتنكر في أشكالها، وأصبح من عادتهـا أن تلصق على أجسادها أطرافاً اصطناعية مكان تلك التي ضمرت أو تلاشت. وتم تأسيس مصنع لهذا الغرض كان إنتاجه أكثر السلع رواجاً؛ وكانت صـناعته مـن الاتقان بحيث لم يعد التمييز بين المخلوقات البرية والبحرية سهلاً، ولا يدري أحد من الحقيقي ومن المزيف ومن هو بين بين. وظهرت فرق مـسلحة مـن جميـع التشكلات حاصرت بيروت، جميعها تدعي الحق في قيادتها وتطلب منها الأتاوات لحمايتها، فكان على المسافر أن يمر بالحواجز الأمنية الكثيرة التـي اصـطنعتها ويرضخ لمطالبها قبل أن يدخل بيروت أو يخرج منها.

وكان التنين يتفاوض معها جميعاً، كل فرقة على حدة:

- قدمي لي مزيداً من القرابين والأضاحي، فأكف عـن غـضبي وأتـرك بيروت في سلام، بعد أن أعطيك مفتاح المدينة وأحكمك في الأرض وأسيدك على منافساتك. ولقد أثار هذا التفاوض شهوة كل فريق ليستأثر وحده بتلـك المهمـة. فمضوا يتخطفون بعضهم بعضاً وينهبون بيوتهم ومتاجرهم ومزارعهم ومصانعهم وكل ما تقع عليه عين الغريم لايتورع عن نهبـه. ويقـدمون أسـراهم أضـاحي ومنهوباتهم قرابين للتنين. وكانت شهية التنين تزداد كلما ازداد ما يقدمه له الناس. فتية تضج الحياة في محياهم، وتمتلئ قلوبهم حماسة يقادون مكبلين كل يـوم الـى حيث ينتظرهم مصير رهيب وفتيات في عمر الزهور يزففن علـى عجـل إلـى التنين، ورجال انتزعوا للتو من خدور زوجاتهم، ونساء اختطفن مـن أطفـالهن. شيوخ وعجائز أغلقوا عيونهم على حزن كبير، وأطفال ما كادوا يفتحون أعيـنهم على هذه الحياة حتى واجهتهم ببشاعتها. بشر وحيوانات وثمار وأشجار وحبـوب وبقول وذهب وألماس ودولارات وليرات ومسجلات وتلفزيونات وأجهزة فيـديو وسجاد عجمي وثريات ذهبت الى جوف التنين، حتى رخام الأرض وخشب النوافذ والأبواب. ولم يكن يعف عن شيء : الكلاب والقطط والجرذان وأكياس القمامـة والأسمال البالية، ولم يعد أحد يدري متى سيشبع، بل لم يجرؤ أحد أن يهمس بهذا السؤال لنفسه خوف ان يبلغ أسماع التنين.

في يوم من الأيام تناقل الناس خبراً أن ينابيع المياه تفور قرب مصب نهر بيروت. في خضم الأحداث الجسام لم يعبأ كثيرون بهذا الخبر، ولكن قلة من الناس تجمعت عند مصب النهر. كانت الينابيع تفور وتملأ الأرض بخيوط مائية تتقاطع وتتلألأ تحت أشعة الشمس الغاربة. خيم السلام والسكينة على الأجواء، وفي وسط

هذا المشهد البديع بدت واضحة كتلتان متفحمتان مستطيلتان. تقدم النـاس منهمـا عابرين الجداول المترقرقة وتحلقوا حولهما.

- هذان قبرا العاشق والمعشوق!.

تذكر ذلك الشيوخ المسنون. وتقدم فتى صغير وصار يزيح بيديه الطحالب السوداء المحترقة، فبان الحجران وعليهما كتابة حفرها أحد ما:

لن تنعم بيروت بالسلام

حتى يعود الزمرد للمقام

* * *

ومن أعماق البحر صدرت حشرجة مكتومة!.